بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة السودان للعلوم و التكنولوجيا

كلية التربية - قسم اللغة العربية

الغزل في الشعر الجاهلي

بحث تكميلي لنيل درجة البكلاريوس في اللغة العربية

إعداد الطالبات::

1. اعتدال عبد الله حجاز زايد
2. زينب عوض الصديق أحمد
3. عوضية حسين أحمد آدم
4. مروه علي وادي محمد

إشراف الدكتور/
بشير محمد بشير

1439هـ/ 2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

ٹ ڈ

چ ہ ھ ہ ھ ے ے چ

صدق الله العظيم

سورة يوسف: الآية

(٢)

إهداء

إليها..

وهي فوق إهدائي وقافيتي وأشعاري تظل رمزا للكفاح والصمود...وطنا للدفء والأمان والحنان منارة تهدي تواه السفن .. ودعواها تلهمني طريق النجاح.

(أمي الحنينة)

إليه..

وهو يمارس الصمود في زمن الانهيار .. شمعا يهيب الضياء للاجيال القادمة . وظل وما زال يعلمني.

(أبي الحبيب)

إليهم..

وهم ينظرون بإشراق للأيام القادمات .. فرحا يقاوم أحزان الزمان ..وبشرى تحطم أنوار المستحبل..

يظلون دائما وقودي لتحقيق أي نجاح.

(إخواني وأخواتي)

إليهم..

من علموني مسك القلم وشدد على يدي في درب العلم ولولاهم لما كان هذا البحث قد تم ولم ير النولر ويخرج للحياة..

(أساتذتي الأجلاء)

الشكر والعرفان

(الشكر لله أولاً وأخيرا ..)

وفي مثل هذه اللحظات يتوقف اليراع ليفكر قبل أن يخط الحروف ليجمعها في كلمات ...تتبعثر الأحرف وعبثاً أن يحاول تجميعها في سطور .. سطوراً كثيرة تمر في الخيال ولا يبقى لنا في نهاية المطاف إلا قليلاً من الذكريات وصور تجمعنا برفاق كانوا إلى جانبنا.

فواجب علينا شكرهم ووداعهم ونحن نخطو خطوتنا الأولى في غمار الحياة.

ونخص بالجزيل الشكر والعرفان إلى كل من أشعل شمعة في دروب عملنا وإلى من وقف على المنابر وأعطى من حصيلة فكره لينير دربنا إلى الأساتذة الكرام في كلية التربية قسم اللغة العربية.

ونتوجه بالشكر الجزيل إلى الدكتور :

بشير محمد بشير

صاحب التواضع الجم.. الذي له القدح المعلى في إخراج هذا البحث المفيد إنشاء الله .. فجزاه الله عنا كلخيرٍ وإحسان. فله منا كل التقدير والاحترام..

مستخلص البحث

تناول هذا البحث الغزل في الشعر الجاهلي ثم بتعريف الغزل وذكر أنواع الغزل والخصائص ثم نماذج من شعر الغزل لشعراء العصر الجاهلي هم:

- الغزل في شعر امرؤ القيس.
- الغزل في شعر عنتره بن شداد
- الغزل في شعر طرفه بن العبد

وقد اتبع الباحثون المنهج الوصفي لإتمام هذا البحث.

Abstract

This paper dealt with spinning in the pre-Islamic poetry and then defining the yarn and mentioning the types of yarn and characteristics. Then we took samples of the yarn poetry for poets of the pre-Islamic era:

- Spinning in the hair of a woman.
- Spinning in the hair of Antar Ben Shaddad
- Spinning in the hair of Ben Al-Abd

The researchers followed the descriptive approach to complete this research.

فهرس المحتويات

الرقم	عنوان الموضوع	رقم الصفحة
.1	البسملة	أ
.2	استهلال	ب
.3	إهداء	ج
.4	الشكر والعرفان	د
.5	مستخلص البحث	هـ
.6	Abstract	و
الفصل الأول: الإطار العام		
.7	المقدمة	1
.8	مشكلة البحث	1
.9	أهمية البحث	1
.10	أهداف البحث	2
.11	منهج البحث	2
.12	حدود البحث	2

الفصل: الإطار النظري		
.13	**المبحث الأول**: الغزل	10-3
.14	**المبحث الثاني**: أنواع الغزل	31-11
.15	**المبحث الثالث**: الخصائص	34-32
الفصل الثالث: نماذج من شعر الغزل في العصر الجاهلي		
.16	**المبحث الأول**: الغزل في شعر امرؤ القيس	55-45
.17	**المبحث الثاني**: الغزل في شعر عنترة بن شداد	66-56
.18	**المبحث الثالث**: الغزل في شعر طرفة بن العبد	70-67
.19	النتائج	71
.20	التوصيات	71
.21	الخاتمة	72
.22	قائمة المصادر والمراجع	73

الإطار العام للبحث

المقدمة:

سوف نتحدث في هذا لبحث عن الغزل في الشعر الجاهلي وعن القيم الفنية الموجودة فيه ، سنتحدث عن أنواع الغزل في البيئة الجاهلية وخصائصه العامة ، وكذلك سنتحدث عن بعض شعراء المعلقات متناولين نماذج من شعرهم في الغزل.

مشكلة البحث:

ما القيم الفنية الموجودة في شعر الغزل في العصر الجاهلي؟

وللإجابة على هذا السؤال علينا أن نقوم بالإجابة على الأسئلة الفرعية الآتية:

ما هي أنواع الغزل في البيئة الجاهلية.

ما المقصود بالقيم الفنية ؟

ما أنواع القيم الفنية التي حملها؟

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في أهمية فن الشعر والنثر بشكل عام والغزل في الشعر الجاهلي بشكل خاص ، وهو غرض قديم وجديد في نفس الوقت كما تنبع أهمية هذا البحث من قدمه وتجدده عبر العصور والأزمان بمختلف بيئاتها المتنوعة.

أهداف البحث:

- محاولة التعرف على القيم الفنية في شعر الغزل في العصر الجاهلي.
- محاولة التعرف على القيم الفنية في شعراء الغزل في البيئة الجاهلية.
- استنباط القيم والمعاني والأفكار التي تناولها أو سطرها شعر الغزل في العصر الجاهلي.
- الاهتمام بالأدب وشعرائه العباقرة الذين سطروا أسمائهم على صفحات هذا التاريخ والارتقاء بهذا الأدب.

منهج البحث:

اتبعنا في البحث المنهج الوصفي للقيام بإجراء هذا البحث ،ويمكن تعريف المنهج الوصفي بأنه (عبارة عن توضيح واقع الحوادث والظواهر التي تمت دراستها في الحاضر بهدف الوصول إلى استنتاجات لتصحيح واقعها وهو فهم الحاضر لتوجيه المستقبل).

وقد اتبعنا في هذا البحث المنهج الوصفي لمناسبته لموضوع البحث.

حدود البحث:

سوف تقتصر دراسة الباحثين على الغزل في الشعر الجاهلي ، أنواعه ، خصائصه ،نماذج من الغزل في الشعر الجاهلي ورد على لسان بعض شعراء المعلقات.

المبحث الأول

الغزل

أهم الفنون وأبرز الموضوعات وأعلقها بالقلب وأقربها إلى طبيعة الإنسان هو فن الغزل، وقد لقى الغزل عناية كبيرة من الشعراء ، سجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم، وتناولوا المرأة فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها ، وما يفعل فيهم الشوق والحنين ، ولم يحفل العرب بشي إحتفالهم بالغزل ، سواء أكن صادراً عن القلب تفرد له القصائد وتخبر له الأشعار أم كان تقليداً مستحباً تفتح به المطولات ويستراح إليه بعد رحلة الشعر ، فيوصل به الحديث ويعقد عليه الحوار.

وترد- في هذا المجال- كلمتان مع الغزل ، هما النسيب و التشبيب ، وكلها مستعملة في الموضوع نفسه ، فهل لكل منهما مدلول معين ، أم أنهما استعمالات لمدلول واحد؟

إن بعض كتب اللغة تجعل هذه الكلمات بمعنى واحد ، يقول ابن سيدة : "إن الغزل تحديث الفتيات الجواري، والتغزل تكلف ذلك، والنسيب: التغزل بهن في الشعر، والتشبيب مثله"([1]). وفي اللسان: "والغزل حديث الفتيان والفتيات، واللهو مع النساء ومغازلتهن: محادثتهن ومراودتهن والتغزل التكلف لذلك ، وفي المثل: "هو أغزل من

([1]) المخصص 4/54-5

امرئ القيس"([1])، ويقول في النسيب ، "نسب بالنساء ينسب نسباً ونيسباً ومنسبة : شبب بهن في الشعر وتغزل"([2]).

أما في التشبيب فيقول : " شبب بالمرأة : قال فيها الغزل والنسيب ، وهو يشبب بها أي ينسب بها.([3]) وكذلك يذهب صاحب العروس ويذكر أن هناك من يفرق بين هذه الكلمات.([4])

وحاول القدامى أن يعطي كل كلمة مدلول مختلفاً ، فقال السريري : " النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وا ٍنما الغزل الإشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن ، والنسيب ، ذكر ذلك والخبر عنه"([5]).

أما قدامة بن جعفر فهو على طريقة أهل المنطق يحب التحديد والتفنين يقول: " إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفق بين النسيب و الغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسباً بهم من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل ، الغزل المعنى نفسه ، والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء([6]) فعندها إن الغزل معنى وا ٍن النسيب التعبير عن هذا المعنى أي عن الغزل ، والذي

([1]) اللسان ، (غزل)
([2]) اللسان (نسب).
([3]) التاج (شبب ، نسب ، غزل).
([4]) شرح ديوان الحماسة 112/3.
([5]) نقد العشر ، ص65 ، ط إبريل ، ص 123 ، ط مصر
([6]). العمدة 117/2.

تخرج به من آراء اللغويين ، أن النسيب هو بمعنى التشبيبوأن الغزل و هو التحدث إلى النساء.

وترد الكلمات الثلاث في كتب الأدب والنقد مترادفة ، يقول ابن اسحق " والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد وأما الغزل فهو ألف النساء والتخلق بما يوافقهن.([1])

وقد استعمل كثير من الكتاب والنقاد القدامى الكلمات الثالث بمعنى واحد ولم يفرقوا بينها تفرقة دقيقة([2]).

ومهما يكن من شيء فلا فائدة ترجى من التفريق بين الكلمات الثلاث ، والأولى اعتبارها من المترادف ، وأخف الكلمات واكثرها شيوعاً واستعمالاً هي الغزل فعليها المعول.

والغزل لغة العاطفة ، صوروا فيه أشواقهم وا ٍحساساتهم نحو المرأة وما يلقون منها من وصال أو هجر ، من وعد واخلاف ودلال وغنج ، صوروا فيه سعادتهم وشقاءهم آمالهم وآلامهم ، واستطاع الشعراء أن يرضوا نزعاتهم الفنية بتحبير القصائد الرائعة التي تصور حبهم وتسجل وقائع هواهم ، ولذلك كان الغزل الفن الكبير الذي اعتنوا فيه وصرفوا إليه أكثر شعرهم ، فشاع بينهم ودارت عليه قصائدهم ، خصصوا له قصار القصائد وطوالها وشارك الموضوعات الباقية.

([1]) ينظر تفصيل ذلك في الغزل في العصر الجاهلي ، ص 6-10

([2])الشعر والشعراء ، ص74

وكان من شغفهم بالغزل أن جعلوه أول موضوع يبتدئون به القصائد الطوال ، سواء أكانوا يذكرون الغزل مباشرة ، أم يذكرون الديار – ديار الحبيبة- لتنقلهم إلى ذكرها والتغزل بها وسرد ذكرياتهم واياها ، وقد لاحظ القدامى هذه الظاهرة فقال ابن قتيبة : " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها.([1])

ثم يذكر ابن قتيبة أن غرض الشاعر من ذلك أن يميل إليه القلوب والأسماع لأن الغزل أقرب الفنون إلى النفوس وأعلقها بالأفئدة: " لأن التشبيب قريبٌ من النفوس، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وا لِف النساء، فليس يكادأحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسببٍ ،وضارباً فيه بسهمٍ حلالٍ أوحرامٍ ([2])

وابن قتيبة يجعل الغزل سبباً في استمالة نفوس الناس وا صغائهم وهذا جانب منه ، وهناك جوانب أخرى تتعلق بعاطفة الحب وبالصنعة الفنية ، وأريد بالصنعة الفنية : أن الشاعر يشحذ قريحته بذكر الغزل ويستنزل معانيه بأن يعيش في جو عاطفي يهيء نفسه ويستثير انفعالاته ، وروى ابن رشيق : " أن ذو الرمة: سئل كيف تعمل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفتاحه؟ قيل له: وعنه سألناك، ما هو؟

([1]) الشعر والشعراء ، ص74
([2]) المصدر السابق ، ص75

قال: الخلوة بذكر الأحباب، فهذا لأنه عاشق، ولعمري إنه إذا انفتح للشعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب، ووضع رجله في الركاب"([1])

والمرأة هي موضوع الغزل ، وقد تناول الشاعر جمالها ، وأول ما لفت نظره جمال وجهها وجمال أعضائها ، ووصف الجمال الجسدي هو الأمر العام الطاغي على الغزل ، أما وصف المحاسن الخلقية والنفسية وتصوير عواطف المرأة وحكاية الحب بين الرجل والمرأة ، فيأتي كل ذلك بالمرتبة المتأخرة من وصف الأعصاء ، أن الشاعر يقف أولاً عند الصورة الخارجية للمرأة ،و الصورة التي تحرك فيه عواطف الجنس وعواطف الحب والجمال .

لقد تعارف الجاهليون – ومن جاء بعدهم- على مقاييس في الجمال أحبوها في المرأة وصورها أكثر من شاعر ، وأجملها – ممن أجملها – امرؤ القيس في معلقته ، فهو يقص حكايته معها بعد أن فاجأها وهي تنضو ثيابها للنوم ، ثم خرج بها إلى منعقد الرمل في بطن خبت ، وصار يغازلها ويصف مفاتنها بقوله:([2])

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل

([1]) العمدة ، 1-206

([2]) ديوان امرئ القيس ، ص15-18

كبكر المقاناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذلل

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

تعطو بخرق شيظ يرتج كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل

لقد وصف امروء القيس كل ما شاهد من حبيبته أو لمس ، فهي لطيفة الكشح مملؤة الساقين ضامرة البطن ، بيضاء صافية اللون ، صدرها ثقيل متلألي كالمرآة الصافية ، أسيلة الخدين ، واسعة العينين ، طويلة العنق قد زينته بالحلى ، شعرها طويل مسترسل على ظهرها أسود فاحم مجعد ، قد عقصت جدائل منه فوق رأسها ، فهو كثير منه المعقوص ومنه المرسل ، وخصرها لطيف وساقها رائق صاف كأنبوب البردي ، وهي مترفه مخدومه تنام الضحى ، طيبة الرائحة ، وترفها هذا جعلها نعامة الأصابع

رقيقة البنان ، أما وجهها فصبح وضاء يغلب نوره ظلام الليل ، وهي طويلة القد مديدة القامة لم تدر الحلم وأن جاوزت سن الجواري الصغار .

وعلى الرغم من جرأة امرئ القيس وما عرف عنه من الأوصاف الحسية في تصوير جسم المرأة والمجاهرة بالخلوات المريبة ، فإن عمرو بن كلثوم كان أكثر تكشفاً وصراحة حين وصف حبيبته وقد كشفت عن مفاتن جسمها.

وهناك طائفة أخرى من الشعراء لم تصرف همها إلى وصف محاسن المرأة وأعضائها ، ولم تتغن بفضائلها وأخلاقها ، ولكن راحت تصور ما يلقاه العاشق المحب من شوق ووجد وهيام ، وما يعانيه من ألم الفراق ولوعة البعاد ، وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم ،يتغنى بخيالها ويمني النفس بزورة من طيفها ، وهو سهر متأمل في طول الليل وثبات النجوم ، أرق مضطرب لما يلقاه من حب عنيف يكاد يخبل العقل ، وتقف قصيدة سويد بن أبي كاهل في طليعة هذا الضرب من الغزل الذي يصور ما يعانيه الشاعر من وجد واشتياق.([1])

وراح فريق آخر من الشعراء يصورون قصص الحب وما يتساقان الأحبة من كؤوس الحب والوصال وما يسقاه المحب من كؤوس الصد والهجر ، كل ذلك في شعر صادق أصيل فيه عفة ونبل ، تصونه المثل العليا وتحوطه القيم الجاهلية في المروءة

([1]) المفضليات ، ص 191-192.

و الشرف ، ولدينا من قصص الحب الشيء الكثير ، ومن أبرز تلك القصص: قصة المرقش الأكبر مع بنت عمه أسماء بنت عوف([1]) والمرقش الأصغر مع حبيبته فاطمة بنت المنذر ([2]) وقصة عبد الله بن علقمه العامري مع حبيبته حبيش ([3]) وقصة عبد الله بن العجلان النهدي مع هند ([4])، وغير هؤلاء ممن تفيض بأخبارهم كتب الأدب وأخبار العشاق والمحبين.

([1]) الشعر والشعراء ، ص 200 والأغاني 127/6
([2]) الشعر والشعراء 1/ 214 والأغاني 136/6.
([3]) الأغاني 280/7
([4]) الأغاني 102/19 وتزيين الأسواق ص80.

المبحث الثاني

أنماط الغزل في الشعر الجاهلي

من يمعن النظر في الغزل الجاهلي يجده على إئتلاف بواعثه وغاياته – مختلف الأشكال متعدد الأنماط.

وأبرز أنماطه أربعة:

1- غزل المطالع والمشوب بالوقوف على الأطلال.

2- الغزل العفيف المعنى يصور الجمال وسمو الغريزة .

3- الغزل الصريح المغموس في الشهوة.

4- وغزل الكهول.

1/ غزل المطالع:

أدرك شعراؤنا في العصر الجاهليالحس ّ والحدس الصادقين، فضل الغزل على الأغراض الأخرى، فجعلوه مفتتح القصائد ليلفتوا إليهم الأسماع، ولينفذوا من الأسماع إلى القلوب بلا عناء ولا استئذان. وربطوا الطلل بالمحبوبة، فكان هذا الربط أصدق الأدلة على وفائهم للوطن والسكن، وعلى جعلهم المرأة أقوى الوشائج التيتشد ّ هم إلى منابتهم فيالحل ّ والترحال.

وأي كلام أحب إلى العاشق المغترب من ذكر الأحبة والديار؟ وأي بدوي تقوم حياته على الترحل الدائم ثم يعرض له الشوق والاغتراب؟

قال ابن قتيبة : (سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظغن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عنماءٍ إلىماءٍ ،و لانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه).

لقد كانت الأطلال – على ما فيها من وحشة وكآبة – المدخل الذي يفضي منه الشاعر الجاهلي إلى الغزل لارتباطها بأحبته. ولما كان الطلل باب الغزل فقد كان الشاعر يحييه ، وهو في حقيقة الأمر لا يحيي إلا حبيبته ، ويدعو له بالسلامة من الآفات ، ولا يرد السلامة إلا لمن كانت تعمره ، ألا ترى امرؤ القيس كيف حيا ديار سلمى التي محت رسومها الأمطار الغزيرة ، وكيف سخر من تحيته قبل أن يسخر منها أحد ؟ وكيف يعقل أن تسمع التحية أو تنعم بالسلامة أرض قفر ، ارتحل عنها أهلها من شهور:

أَلا اصْبَحِيهَا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي

وَيَهْلِكَ مِنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الخَالِي

وَيَهْلِكَ مَنْ إِلاَعِيدُخَلَّدٌ

قَلِيلِ الهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وَيَهْلِكَ مَنْ مَنْ كَانَ أَحْدَثُ عَهْدِهِ

ثَلاثِينَ شَهْراً فِي ثَلاثَةِ أَحْوَالِ

دِيَارُلِسَلْمَى عَافِيَاتٌ بِذِي خَالِ

أَلَحَّ عَلَيْهَا كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ

وفي هذه الوقفة يختلط الحاضر والماضي ، ويمازج الفرح الحزن ، ويساور القلق الإطمئنان ، فلا يستطيع الشاعر أن يتبين في هذا الخليط من المشاعر المتداخلة الحقيقة من الوهم ، فيستحضر صورة المحبوبة ليجريها بين الظباء والآرام ، أو ليذكرها ما كانت تصبوا إليه.

كانت سلمى تظن أن حياتها السعيدة مع امرئ القيس لن تنتهي ، وأن الحال لن تول ، وهيهات هيهات !! فقد انطوت الأحلام وبقى الطلل:

وتحسبُ سلمى لاتزالُ ترى طَلا ... مِلاحِشَوِ بَيضاً يَثلمِ حَلالِ

وتحسِبُ سلمى لاتزالُ كعهدنا ... بوَادِالخِزَامِلَى رعلَيسأَوّعالِ

صحيح أن الطل أرض قفر ، ومنازل مهجورة ، لم يبق منها غير النوى المتهدم ، وحجارة المواقد السوداء ، وأبعار الظباء المتناثرة غير أنه – على ذلك كله – وطن من أوطان حل بها الشاعر ، وطعم الحب ، وبينه وبين المحبوبة تكامل وتداخل ، واعتناق والتصاق ولهذا فلما كان الشاعر الجاهلي يتصور الطلل بلا أهل ، أو المحبوبة بالأرض تحمل خطاها إلى ذاكرته ، وماضيها إلى حاضره وشبابها الريان إلى كهولته.

فإذا هو يخرج من وقار الكبار ، ليدخل في حلل الفتيان ويدعي الفتك والإغواء:

ألا زعمت بسباسةُ اليوم أنني كبرت وأن لا يحسنُ اللهو أمثالي

كَذَبتِ لَقَد أَصبىءَ لِلهَ وَرِسوُهُ أَمذَعُ رِسيأُنَ بِها الخالي

وهكذا ينلقب المشهد في لحظات من أرض قفر إل مسرح حي.

فهل يستطع أحد أن يتهم شعراء الأطلال بالجمود ، وفيه هذا العالم الزاخر بالحياة والحب والغزل؟

وا ِذا كانت إنسانية العاطفة المحك الذي تضرب عليه العوطف ليعرف صادقها من الكاذب فإن ميل الرجل إلى المرأة من أقوى العواطف الإنسانية ، وأوسعها شمولاً ، وأعلقها بالنفوس ، وألصقها بالغرائز، يحسها شباب الشعراء وكهولهم ، لكنها في الشباب تزداد عنفاً ، وفي الكهولة تخبو ولا تنطفي.

قال ابن قتيبة:(التشبيب قريبٌ من النفوس، ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وا ٍلف النساء، فليس يكادأحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسببٍ ، وضارباً فيه بسهمٍ حلالٍ أوحرامٍ).

وهذا النمط من الغزل – على صدقه وشرف مقصده – لم ينجُ من سهام النقد ، فقد ذهب قوٍ إلى أن ورود الغزل في مطالع المطو ّلات دليل على أنه لم يكن أكثر من تقليد وٍ عي ، وسنة متبعة ، وعادة لا يستطيع الشاعر التملص من شركها ، وحجتهم الأولى في ذلك أن الشاعر كان يحلى به قصيدته سواء أكان شاباً أم كهلاً، عاشقاً أم غير عاشق ، وهي حجة واهية لأن الشاعر قد يستنكر التصابي وهو إلى اللهو تائق ، وعلى الشباب متحسر كما قال النابغة:

دعاكَ الَهو َ واستَجه َ لَتكَ الَمنازِ لُ ، وكيف َ تَصابي المرءِ والشّيب ُ شاملُ ؟

وحجتهم الثانية : أنه قد يستنكر الهوى ليصرف فتيات القبيلة عن التحنث إلى المكارم .

والحق أن ازدجار الشيخ أو إعراضه عن الغزل لا يعني أن هذا الغرض رسم مرسوم على الشاعر لا انفعال فيه، وا ٍنما هو تعبير عن صراع بين نقيضين هما: بقايا الشباب الراحل ، ونذر الكهولة الوافدة أو هو ثورة النفس الأمارة باللهو ، على سلطة المجتمع الداعية إلى الوقار.

وربط كان ارتباط المرأة بالأطلال في هذا النمط من الغزل تعبيراً عن توق البداوة إلى الاستقرار ، وضجر الإنسان من القلق الذي يلازم حياة الترحل ، ولهذا تتردد فيه أصوات النساء تدعو الرجال إلى المكث في الديار ، فإذا مل الرجال الأسفار ، ومروا بديار الأحبة أحسوا نوعاً من السكينة والطمأنينة يخلع على غزلهم نباله وسماً لا مثيل لهما في أغراض الشعر الاخرى ، ومضوا يكلمون النؤي والأثافي، وهم يتمثلون اللواتي كن يرفلن في هذه المواضع ، يملأنها جمالاً ودلالاً وبهاء ً ورواء، فإذا المرأة والوطن كيان واحد.

وا ِن من مر عنترة بدار عبلة في (الجواء) حياها وكلمها ، ودعا لها بالسلامة ، وما المقصود بالتحيات والدعوات إلا عبلة :

يا َارعَ َب ْلبِةَالَجَ واتِكَ َلَّمِي.عَ ِمِّيهَ باحَاَّرَ عبْ لةَواسلَمِي.

وا ِن رأى زهير (حومانة الدراج) سألها عن أم أوفى ، إذ لا فعل لأرض على أرض إلا في شيء واحد ، هو ارتباطها بالمحبوبة :

أَمِ نأُمِّ أَوفيِمنَ ةٌتلَكَمَ لَّمِ بِحَ وماذالَقِ ُرفَّاللمجِ تَ ذَلَّمِ .

وربما جعل الشاعر داره وآثار داره وشماً في يد المحبوبة ، حتى تغدو المرأة وطن الوطن ، لا بعض الساكنين فيه : قال طرفة:

لِخَ ولةَ أَطْلالبٌِ ُرقَةثَهمَ دِ ، تلوح كباقي الوشم في ظاهراليدِ .

أو ربما أحس الشاعر العجز عن الوفاء بحق المحبوبة فاستعان من يعينه على الوفاء بالبكاء ، فإذا هو خاشع ضارع ، أو صامت قانت يبكي ويستبكي كأنه في محراب عبادة يكفر عن خطاياه.

قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحومَلِ .

وما بكاء العاشق على الطلل الدارس والمحبوبة النائية بأعظم من بكاء المعشوقة على العاشق المفارق ، لهذا ألح الشاعر في هذا النمط من الغزل على تصور صاحبته باكية ، وحمله هذا التصور حسرات لا تفارقه ، فكلما خلا إلى نفسه وافاه طيف المحبوبة يعاتبه ، وخيل إليه أنه يراها شاكية باكية ، تنهمر العبرات من عينيها الحوراوين على خديها الأسيلين.

قال بشامة بن الغدير:

هَجَرتْ أُمامَةَ هَجراً طَويلاً مَلالَةَ أَيِّ عِبئاً ثَقيلا

وَحُمِّلتَ مِنها لَيالِيَ أَيهاً لَيالاً وَفِيَّ لَيلاً قَليلا

أَتَتَسائِلُ مِنّا ثُنَيّاً قُلنا لَها قَد زَمالاً حيلا

فَبادَرَ بِقَلبٍ مُستَعجِلٍ مِنَ الدَيمَضِ خُدّاً أَسيلا

ولما كان أساس هذا الغزل التصور والتذكر ، وبث الحياة في الماضي لعله يعود حاضراً – وهيهات – فقد كثر فيه ذكر المواضع التي مرت بها المحبوبة وبهتت الصور ، وتقطعت ، لأن خطوطها وألوانها وحركاتها تستمد من الذاكرة ، لا تحمل إلى الشاعر ما تحمله العين من صور واضحة مشرقة ، بل تحمل إليه أبعاضاً من صور متنافرة ، تتصل برحيل المحبوبة وتقلبها بين أطراف الأرض ، وبياض بشرتها ، وسحر حديثها ، كما تحمل إليها معنى يرضي غروره ، وهو حرص المبحوبة على بقاء الشاعر إلى جوارها ، وخوفها عليه من المهالك .

قال النابغة:

باذَتْسُعادوأُمْسَحَبلُها انجذما، واحتلتِ الشرعَفالأجزاعَ من إضما

غراءُ أكملُمنْ يمشي على قدم حُسوْأطْلَعاُوَزَنْتَالكُلِمَا

قالت:أراكَرأَخَلْوِراحِلَةٍ ، تغشىمتالفَ ، لن ينظرنك الهرما

والراحلة التي ترحل بالشاعر لا تعد ذات خطر إذا قيست بالراحلة التي تتأى بالمحبوبة ، إن صورة الظعائن في هذا الغزل البدوي أوضح الصور ، وأبقاها في الذهن.

فالشاعر بعد أن يتعرف الطلل ، ويحدد مكانه ، وزمان الرحيل عنه تعود به الذاكرة إلى الماضي ، فيقبض إليه طرفه الذي أرسله بين النؤي والأثافي وينكفئ إلى بوح

الفراق الذي ودع فيه أحبته ، فيخيل إليه أنه يبصر الهوادج تحمل حبيبته ، ثم تبتعد عن المضارب متئدة ، كأنها سفن تعوم فوق أمواج دجلة.

قال عبيد بن الأبرص:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن يمانية قد تغتدى وتروح

كعوم سفين في غوار لجة تكفئها في وسط دجلة ريح

وأثر الفراق في نفوس الظعائن لا يحل عن أثره في نفوس الشعراء ، ولهذا كانت كل ظعينه تثقب نسيج كلتها لترسل بصرهاإلى الديار يتملى ويودع وكان المثقب العبدي يرى أحداق الظعائن براقة خلف الثقوب ، كما يرى أطواق الذهب على نحورهن وترائبهن البيضاء الصقيلة ، فيقول:

ظهرن َ بكلَّةٍ وسدلن َ رقماً

وثقبنالَوصاوص َ للعيونِ

ومن ذهب يلوح على تريب

كلون العاج ليس بذي غضون

يظهر أن لهذا الضرب من الغزل منهجاً وأفكاراً وصوراً متشابهة لا تختلف كثيراً باختلاف الشعراء.

يبدأ الشاعر يتعرف الأطلال والبكاء عليها ، ثم يصف ما فعلته الأنواء فيها ، وما أبقاه الزمان من آثارها ، وبعد ذلك يتذكر محبوبته ، فيصف جمالها وصفاً سريعاً ، يعتمد على التذكر ، ويختم هذا الغزل بوصف الظعائن.

إذ وقع شيء من الاختلاف بين الشعراء فهو اختلاف محدو مردود إلى مقدار ما يوليه من العناية كل شاعر لكل معنى ،وا ٍلى ما يعروه من المشاعر في كل موقف.

فبعض الشعراء يطيل في وصف المحاسن ، وبعضهم يطيل في تصوير موكب الظعائن ، وبعضهم يغمره حزن يبيكه ، وبعضهم يتسلى بالجمال المتخيل عن الألم الملم.

وبهذا الاختلاف يكتسبُ غزلُ المطالع تنوعاً وثراء يتمثلان في بروز السمات الخاصة بكل شاعر وطغيان النوازع الشخصية على المنهج العام.

2/ غزل المحاسن والمفاتن:

يعد هذا النمط من الغزل أجود الأنماط ، وأقربها إلى الفن ، وأقدرها على مزج الجمالين: جمال الطبيعة وجمال امرأة ، وأنجعها في الكشف عن الذوق العربي في تصور الجمال وتصويره.

إن الشاعر اختصر الطبيعة كلها فكانت المرأة صور الجمال كله ، فكان جمالها.

أما المرأة العربية ذات الجمال التام كما صورها الجاهليون في أشعارهم والدكتور نصرت عبد الرحمن في نثره اعتماداً على هذه الأشعار (فبيضاء البشرة أو صفراء ، أو بيضاء مشربه بالصفرة ، وليست سوداء . وهي بادن القد ، ليس نحيلة ولا جبلة ، وقامتها نياف ، طويلة مشرعيه ، قد جمعت المدادة والجهارة ، وهي مصقولة الترائب ، جماء التراقي ، ريانة غير زلاء ، جيداء ، ممتلئة الزراعين ، ريا المعصمين ، ودرماء المرفقين ، نبيلة موضع الحجلين ، ريانة ، الساقين والقدمين لها حصيد دقيق وكشح هضيم ، أملس ذو دعكن وغير مفاضة وعينان كحيلان فيهما فتور وحور، وخد أسيل).

وتحدث امرؤ القيس عن بياض البشرة المشوب بصفرة ، فقرنه ببيض النعام ، فكان أقرب إلى الدباوة ، وعن إشراق الصدر والنحر فاستمده من لمعان المرأة ، فكان أقرب إلى الحضارة ، فقال:

مُهَفْهَفَةٌ فِيهَا لَمْعَانُ مُفَاضَةٍ
تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ
كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ صَفِرَةٍ
غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ

والجادرة شغلته ابتسامة صاحبته عن حديثها ، ولم يضع منها بإشراقة الدر المنضود بين شفتها ، بل أحرقه الظمأ إلى رضابها ، وخيل إليه أنه أمام غدير استمد

ماءه من سحابة ساقتها ريح لينة ، فهمى مطرها النقي السخي عليه ، وترقرق فيه فكلما افتر ثغرها ماج الري فيه وتألق ، وودّ الشاعر لو يكرع منه حتى يرتوي :

وا ٍتُنازعُكَ الحديثَ أَيْتَها ,حسناً تبسمهالذيذَ المكرعِ

كغريضِ ساريةٍ أُتيحَ لها الصبا ,نْ أَملاءْجِرَ طَلَيِّبُسِدْتَذَقَعِ .

ولا يخفى ما في هذا الغزل من الصدق في التصوير والتعبير ، ومن تأثير البداوة والحضار في صنع الذوق الفني ، ومن مزج الطبيعة بالغزل ، وطغيان الحس على الفن ، وا ٍرتباط المحاسن بالغرائز ، لكن ذلك كله لا يعني أن المفاتن المحسوسة شغلت الشاعر عن نفس المرأة وخلقها ، فقد أعجب الأعشى بخلق صاحبته هريرة ، وبإعراضها عن التجسس ومراقبة الجيران للوقوف على خفاياهم:

لَيسكَتَمْ يكرْالَجِيرَ اظلُعَتَهَا

وتَلاَ اهلَسِرالّجتَاوخِتَتَلُ

وقد يعروك العجب – وأنت مبهور البصر بالجمال المحسوس – حين ترى الشاعر الجاهلي يُعرض عن محاسن الجسد ، ويتغنى بمحاسن الروح وبما يعتقد أنه أفضل فضائل المرأة . وقد ينقلب عجبك إلى إعجاب حين تعلم أن هذا الشاعر فاتك صلب ، يهابه أعتى العتاة ، ويتقيه أقسى القساة ، لكنه إن نظر إلى طرف غضيض منسدل على عين امرأة ، تمشي على استحياء أرسل بصره فيما وراء الطرف الكسير

يحلل النظرة وما وراءها ، والمشية وما تدل عليه ، فإذا الشنفري – هذا الصعلوك الشرس الذي قتل تسعة وتسعين فارساً من أقوى الرجال – قتيل أضعف النساء ، فما الذي أعجبه من جمال صاحبته أميمة؟

قال الشنفري:

لَقَدْ جَ بَ تْ نِي سلاَ قُ وظِ ئَ اعُ ها مإذَا ثَ تَ ْ ولاَ اتَ لَ فُّ تِ
تَ حُ لُّ مَ نْ جاةٍ اللَّوْ مِ يَ تَ ها إذا مُ ياُ وتبٌّ مَ ذَ مَّ تِ لَّ تِ
كأنّ لها في الأرْ ضِ نِ سْ يَ قاُ صُّ ه علىأمَ هِّ لْ زِ كْ لَّ مَ تْ لَ تِ
أمَ يْ مَ ةُ لا يُ خزِ يَ ذَ اها لَ يلَ ها ذإُ لاالرّسَ وْ انعُ وَ تَ جْ لَّ تْ
إذُ ا أَمْ سَ ى آب قُ رُ عَّ يَ ذْ هِ مَ آب السَّ عِ يد يِ لَمْ لَ أْ يِ نظَ لَّ تِ

ولا مراء في أن محاسن الروح في الغزل الجاهلي كانت دون محاسن الجسد ، وأن الشاعر الجاهلي كان أسير الغريزة والحس في أكثر غزله ، وأن له من جاهلية عصره شفيعاً يسوغ نزعته المادية الصريحة.

لكن هذا القليل من محاسن الروح يعد في رأي الدكتور شوقي ضيف – دليلاً واضحاً على سمو النفس العربية ،وعلى " أن الغزل العذري له أصول في الجاهلية).

3/ الغزل الصريح الماجن:

لم تكن نفوس العرب – على جاهليتها – تألف الغزال المكشوف ، بل كانت تؤثر التلميح على التصريح، والإشارة الموحية على العبارة الفاصحة ، ولهذا قل في غزلهم و الحديث عما يجري بين الرجال والنساء من مراودة تفضي إلى الوصل ، وفي هذا القليل لونان من الغزل الوصفي الفاضح ، والقصص الماجن.

أما الوصف الفاضح فأبيات متفرقات يصف فيها الشعراء ما استتر من جسم المرأة بألفاظ غير مكشوفة ، تخفي المعني الساقط بالعبارة المهذبة ، أو تستر تعهد الفكرة بغلائل الكناية ، فكأن الشعراء كانوا يحسون حرجاً في تناول هذه المعاني ، فلا يلغون فيما تلغ فيه ألسنة السوقة ، ومن النموذجات القليلة التي تمثل هذه الأنماط من الوصف أربعة أبيات في خاتمة القصيدة التي تصف المتجردة ، وهي أبيات لا تخلو من تعهد في المضمون ، ومخالفة لما ألف عنه النابغة الذبياني من تعفف وأنفة ووقار فإما أن تكون نزوة من نزوات الشاعر وا ٍما أن تكون محمولة عليه لتنفيذ النعمان منه ، وهي في الحالين لا تمثل نزوعاً كان الشاعر ينزع إليه ، ولا ظاهرة فنية أو نفسية من ظواهر الشعر العربي في العصر الجاهلي.

وأما القصص الماجن فينطوي على مجموعة من أخبار نقلتها كتب الأدب عن مغامرات الشعراء وما رافق هذه المغامرات من قصائد ومقطعات تروى حواءة الشعراء ، وا ٍقتحامهم أحية النساء ، ومراودتهن وا ٍغواءهن.

وهي أخبار يختلط فيها الخيال بالواقع ، والوهم بالحقيقة ، ويبالغ فيها الشعراء ليثبتوا مقدرتهم على الظفر بالنساء وليدلوا على لذاتهم من الفتيان بالرجولة والفحولة.

وا ٍذا راق لبعض المجان أن يباهي بما اجترح ، وأن تأخذه العزة بالإثم ليميل إليه الأسماع ، ثم يجرؤ على التصريح ، وأثر أن يكنى عمن يحب.

ومن أشهر هؤلاء المجان الأعشى الذي فتنته امرأة مفتونة بشبابها الريان ، متوفرة على العناية بزينتها ، غارقة في عطرها ، فلبث يترصد الرقيب غفلة ، حتى إذا سنحت له في جوف الليل اقتحم عليها مخدعها ، وأصبح فناها الأثير الذي يغنيها عن بعلها الفاضل الكامل:

وَمِثْلِكُعِجْبَةٍبِالشَّبَابِ بِصَاحِبِهَا أَجْدَرُ

تسديتها عادني ظلمةٌ وَغَفْلَةُ رَيْنٍ قَادِهَا

فبتُّ الخليفةَ مَنْ زوجها، وسيدَ نعمٍ ومستادها

ومنهم امرؤ القيس الفتى المزهو بشبابه الغارق في شهواته الذي طرده أبوه فكان من أوائل ، فإذا صادفه غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام ، فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد ، فتصيد ثم عاد فأكل ، وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانه، تذكر كتب الأدب أن أمرؤ القيس " انتظر ظعن الحي وتخلف عن الرجال حتى إذا ظعنت النساء سبقهن إلى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى ثم علم أنهن

إذا وردن هذا الماء اغتسلن فلما وردنه نضون ثيابهن وشرعن يغتسلن وهو يرقبهن عاريات ، ثم عقر لهن راحلته ، فجعلن يشوين ويأكلن.

قال امرؤ القيس يصف هذا اليوم في معلقته:

أَلا أَيُّها ذَا الزَّاجِرِي أَحضُرَ الوَغى
وَأَنَّ أَشهَدَ مِن عَوفٍ حُلولَ قَبيلِ
وَيَومَ عُقَيرٍ قَد شَهِدتُ وَقَبلَهُ
وَيَومَ تَوَلَّى الخَيلُ تَردي بِكَلكَلِ
فَيا رُبَّ يَومٍ قَد لَهَوتُ وَلَيلَةٍ
بِآنِسَةٍ كَأَنَّها خَطُّ تِمثالِ
فَظَلَّ العَذارى يَرتَمينَ بِلَحمِها
وَشَحمٍ كَهُدّابِ الدِمَقسِ المُفَتَّلِ

ثم اتبع امرو القيس هذه القصة قصة أخرى ذكر اقتحامه هودج عنيزة وزعم أنه راودها وعابثها فضاقت به ودعت عليه فلم يزدجر ولم يدعو ، وحدثها عن حادثة أخرى كان فيها الفرس المجلي في ميدان الحب ، غذا استطاع أن يشق طريقه إلى فتاة ممنعة بين الجند والأحراس:

بَيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خَبائُها
تَمَتَّعتُ مِن لَهوٍ بِها غَيرَ مُعجَلِ
تَجاوَزتُ أَحراساً إِلَيها وَمَعشَراً
عَلَيَّ حِراصاً لَو يُسِرُّونَ مَقتَلي

ونحن نظن أن لهذا الضرب من الغزل ضرب من النساء كالقيان والإماء والبغايا، يدلل على ذلك أن الذين أثر عنهم هذا الضرب من الشعر هم أصحاب الخمر والفجور ، ورادة الحوانيت ، وأقران المخانيث والخلفاء ، أما الحرائر فلا سبيل لهؤلاء إليهن ، لأن الخلق العربي كان يأبى التصهر ، ويجعل حماية العرض من أهم القيم التي يعتزبها الجاهلي ، ولأن إدعاء الفسقة ما ادعوا ينافي ما عرف به عرب الجاهلية من غيرة واستبسال في حماية الظعائن ، ومن اعتزاز بطهارة الآزار ، وطيب الحجزة ، ولهذا تأثم النابغة وتحرج مما رماه به أعداؤه من غشيان المتجردة ، وطفق يعتذر للنعمان ، ويتبرأ مما ألصقه به خصومه ، ليدفع عن نفسه وعن النعمان جريرة يستنكرها العرب ، وعاراً يلحق الرجال والمواة.

وربما كان ديوان امرؤ القيس وديوان الأعشى أفضل دواوين الجاهليين بهذا النمط من الغزل لما أُثِرَ عنهما من التمادي في الباطل ، والتوقد على اللهو ، وامتلاك المال الذي ذلل لهما الصعاب ، وفتح لهما أبواب الحوانيت ، وما تحوي الحوانيت من قيان ، أضف إلى ذلك كله لامرئ القيس منيزة تفرد بها هي إمارة أبيه التي جعلت له دالة على الناس ، وبوابة ما لم يتبع غيره من فتيان زمانه.

لكننا لا نصدق كل ما في ديوانه من قصص الحب للأسباب التي ذكرناها ولسبب نفسي آخر، هو أنه كان إذا لقي الصد من امرأة حرة ادعى أنه زير نساء ، وأنه

قادر على المحصنات من بين أيدي الأزواج ، كأنه بهذا الحب المتوهم يعلل نفسه عن حب حقيقي لم يظفر به ، وفي لاميته التي مطلعها :

"أَلِاهِصْ َبا َأَلِيِّهِ َالطّلَلُ الخالي"

قصة أو أكثر من هذا البحث المتوهم.

4/ غزل الكهول:

في الشعر الجاهلي ضرب من الغزل لا يقل عن غزل الشباب ادعاءا ودلالاً بالشباب ، لكنه أصدق وأعمق منه في بعض الجوانب ، وهو غزل الكهول ، وإنه ينطوي على حسرات تقطع قلوب الشعراء ، ومفاخرة هي إلى الرثاء أقرب وبالهزيمة أشبه .

جوهر هذا الغزل الصراع بين العجز الحاضر ، والقدرة المحطمة ، أو بين رغاب الشاعر المتصابي وصدود المحبوبة المعرضة ، أو بين الأظافر المهترئة المتشبثة بدماء الروح والغناء الذي يساور هذه الروح ويحاول أن يصرعها.

وأقوى المعاني بروزاً في هذا الضرب من الغزل إنكسار الشاعر بعد شموخ ، وضجره بعد سروره ، وشكواه من الشيب الذي يغزو شعره ، والإنحاء الذي يعدو ظهره ، والفقر الذي يقطع الوشيجة الأخيرة التي تربطه بالنساء ، قال امرؤ القيس:

أَرَاهُنَّ يَطْلُبْنَ مَرَقَّلَهُ الْهُ ولا من رأين الشيب فيوقّرنا.

ونظر علقمة بن عبدة إلى النسوة المعرضات عنه بعين حاسد محنق ، لأنه لا قدرة له على نزع البيض من رأسه ، أو كظم الغيظ في نفسه ، وهو يعلم حق العلم أن أحب الأشياء إلى النساء اثنان: شباب متوقد ، ومال وفير :

فإن ْ تَسألوني بالنِّساء فإنَّني

بصير ٌ بأدواءِ النِّساطبيب ُ

إذا شابرأسالمُ َر ْ ءِ أقَلَّماله ُ

فليس لهومُندِّه ِنَّصيب ُ

يُرِد ْنثَراء َ المالِعَيلثِمُ ْ نَه ُ

وشر ْخُ الشَّبابلمْبْدَه ُنَّعجيب ُ .

والمعنى التالي في هذا الغزل ازدجار الشاعر ، وإعراضه عن الباطل ، وإقداره بالعجز ، وخلعه حلل العشاق ، ولبسه لبوس الحكماء مضطراً لا مختاراً ، وكيف يستطيع أن ينضو لبسة الوقار بعد أن ألقى الشيب على رأسه خماره من جهالة الفتيان حكمة الشيوخ ، وأثقل هره بهمون تبهظه ، ووهن يشل حركته ، قال الأعشى:

فأصبحت لا أقرب الغانيات

مزدجرا عم هواي ازدجارا

و إن أخاك الذي تعلمين

لياليا إذ نحل الجفارا

تبدل بعد الصبي حكمة

و قنعه الشيب منه خمارا

أحل به الشيب أثقاله

و ما اعتره الشيب إلا اعترارا

لكن هذا المعنى يزعج شاعر كهلاً كالأعشى ، فلا يطيق تصوره ، بل يرتد إلى الماضي كرة أخرى، فيخلع جبة الكهولة ، وينقلب في طرفة عين شاباً يتصبى الفتاة الحسناء ، ويغريها بالوصال ، ويخرجها من خدرها ليقولها مدلا بشبابه الراحل.

فإما تريني على آلة

قليت الصبى و هجرت النجارا

وقد أخرج الكاعب المستراة

من خدرها وأشيع القمارا

وكأني بالشاعر المكتهل يغالب سيرة الحياة ، ويحاول أن يستوقفها ، أو يردها إلى بدايتها فلا يستطيع ، ثم يضطر بعد أن يقر بسلطان الزمان على الإنسان إلى التعامى عن الحاضر ، والنظر في الماضي ، وفإذا الشيب قد ارتد سواداً ، وا إذا شعره

الأسود المضمغ بالطيب ينسدل على وجه ناعم لا غضون فيه ، وا ٍذا الكواعب يصغين إليه مشغوفات بصوته الرقيق ، ويقبلن عليه مفتونات بشبابه الر يان.

على هذا النحو تمثل امرؤ القيس نفسه شاباً بعد اكتهال فقال:

و َر ُبَّ أَيَو ْمٍ قَدْ حَرَ جَلاًّ حَ بِيباً إِلىالبِيلىكَوِ اعب أَملَسَ ا

يرعن َ إلى صوتي إذا ما سمعنه كمَ َرَا ْعوِيعِ يطٌصإِلَى ْتأَعِيَسَ ا

إن في هذا النمط من الغزل ثورة تغالب فيها أنباض الحياة نذر الموت ومحاولة لإيقاف حركة الزمن ، وحسرة على الشباب الراحل وشكوى من الشيخوخة القادمة وا ٍحياء لصور الماضي التي أخذت ألوانها تبهت ، وأصواتها تخفت.

المبحث الثالث

الخصائص الفنية

الخصائص اللفظية:

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة؛ فالتراكيب تامة ولها دائمًا رصيد من المدلولات تعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز.

وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيًّا لغويًّا، وهو رقي لم يحدث فجأة فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة؛ فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب.

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها؛ حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقًا مرسومًا، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيرًا رتيبًا، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعورًا دقيقًا، مما جعل زهيرًا يقول بيته المأثور إن صح أنه له:

فَأَرَاقَ لُبَّ الحارثيين بعدما ... أَمْسَى عادًا من لفظنا مكرورا

فهو يشعر أنهم يبتدئون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة، ويجرون على طراز واحد طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب؛ فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصفي جهده حتى يثبت براعته.

ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادراً؛ فاتجهوا إلى قوالب التعبير، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون، وبالغوا في ذلك، حتى كان منهم من يخرج قصيدته في عام كامل، يردد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها([1]).

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تصنع دفعة واحدة؛ بل كانت تصغ على دفعات، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع في طائفة منها، ولعله أيضاً السبب في تَفَكُّكها واختلاف عواطفها؛ فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة. وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته؛ فكانوا يروونها بصورة، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدِّل في بعض أبياتِها، يبدل كلمة بكلمة، وقد يحذف بيتاً. ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح. وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة في هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد؛

([1]) البيان والتبيين 9/2 وما بعدها

فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقها([1]) ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه([2]) ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر، كما لقبوا طفيلاً بالمحبر لتزيينه شعره([3]) ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره([4]) ولقبوا غير شاعر بالنابغة في شعره، ومن ألقابهم التي تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقّف والمتنخّل.

وقد استطاعوا حقًّا أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة.

ونحن نعرف أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة؛ فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة، حتى استوى استواءكاملاً ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في غزلية المتنخل الهُذَلي الكَرْكَري السابقة.

وحقًّا هو في جمهوره جزل؛ ولكنها جزالة تستوفي حظوظاً من الجمال الفني؛ ولذلك ظلت ماثلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة. واقرأ في حوليات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل

([1]) الأغاني (طبعة دار الكتب) 75/5
([2])المفضليات 410/1 ، 485
([3]) المفضليات 41/1
([4]) لأغاني (طبعة الساسي) 112/21

والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدي فستجدك أمام قصائد باهرة، قد أُحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط، وسنعرضقطعً ا منهافِي حديثنا عنالشُّعراء، لنصور براعتهم في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم جهَنزا ُلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق. وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم؛ لغرض التأثير في سامعيهم، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية، وأكثرهادورانً ا في أشعارهم التشبيه؛ فلم يصفوا شيئًا إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي، فالفرسمثلاً يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والعسيب وتشبه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعرفه بالقصبة الرطبة وحافره بقعب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخباء.

وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة في المفضليات والأصمعيات، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها. وعلى نحو ما لاحظنا

آنفاً كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم، وقد يقعون على صورة نادرة كتصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات، يقول:([1])

تُعلِّمُ كَفَلْزُورِ ... عَكُفْنٍ مَثْلَ أَساودِ التَّنُّوم ([2])

كانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس، وألم سويد بن أبي كاهل بهذا التشبيه، وحاول أن يخرج إخراجاً جديداً فقال:([3])

حرّتَجْلُوَ تِيتاً واضحاً كشعاع ... الشمس فالغَيْمَطَعْ ([4])

فجعل أسنان صاحبته المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبزغ من خلل الغيم.

الخصائص المعنوية:

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال؛ سواء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة؛ فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة.

ومرجع ذلك في رأينا إلى أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء؛ بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمس جواهرها. ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة

([1]) الأصمعيات ، ص54

([2]) يعكفن: يمشطن شعرهن ، والأساود: الأفاعي والتنوم شجر ، ولم يعكف لزور : كناية عن عفتهن.

([3]) المفضليات ، ص191

([4]) التشتيت :المتفرق يريد أسنانها المفلجة ، واضحاً : أبيض.

دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها.

وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهلين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم. وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات. ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يغتصب الحيوان لنفسه([1])، والبدر والبيضة والدرة! والدمية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأُقحوان وبنانهبالعَنم وثغرها بالبلور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقهابالبُردية أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالبقرة والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل.

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعر الجاهلي جميعه؛ فالشاعر يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه وفصلوا الحديث فيهتفصيلاً شديداً، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدةوإنما يصنعتمثالاً ؛

([1]) الأصمعيات ، ص171

فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منهاشيئ ًا دون وصف أو بيان.

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم؛ بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة، فما يقوله طرفة في الناقة يقوله فيها غيره، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء، واقرأ حماسية كمعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد.

وقل ذلك في غزلهم ومديحهم ورثائهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة. ومن ثمَ بَدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد،وجنَى عليهم ذلك ضيق واضح في معانيهم؛ غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يجلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء.

واقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجدائم ًا نفس المعاني، وستجدأيض ًا براعة نادرة في إعادتها وصوغهاصوغ ًاجديد ًا؛ فكل شاعر يحاول أن يعطيهاشيئ ًا من شخصيته، وخذمثلا ً تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشبهها بهلتشبيه ًا عاديًّا، وشاعر

يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر، يريد أن يتسم بذلك منظر ًا بديع ًا.للظبية، يقول علباء بن أرقم:([1])

فيوم ًا توافينا بوجهٍ قَسَّمٍ كأَن ظبية تعطو إلى ناضر السلم

وآخر يشبه جيدها بجيد الظبية في استوائه وطوله وجماله، وآخر يجعله في التنفس كقول المنخل اليشكري:

ولثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً ، وخذ مثلاً تصويرهم للرجال بالكواكب والنجوم ، بقول عامر المحاربي.([2])

وكنا نجوم ظلام كلما انقض ّ كوكب بدا طالع ًا في حندس الليل كوكب

ويقول لقيط بن زرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة:([3])

وا إِنِّي لَمِنَ القَوْمِ المُذَرِينَ فَتَهُمْ ... إِذا نطقت منهم يَدٌ قام صاحِبُهْ

ذُجُومٌ مَا لَهُمْ لَمْ تَكْوَ إِلاَّ كَوْكَبٌ .كَبَوْا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوْكِبُهْ

أَضاءَتْ لَهُمْ أَحْسابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجُنَّةَ لَيْلٍ حِينَ يُظْلِمُ حَالِكُ ناقية

وألم النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلة جديدة ، إذ قال في النعمان بن المنذر مقارناً بينه وبين الغساسنة.([4])

([1])الأصمعيات ص 178 ومقسم : من اقسام وهو الجمال ، تعطو : تتناول ، السلم : من أشجار البادية .
([2]) المفضليات ، ص321.
([3]) الحيوان 94/3 ، الجزع : خرز فيه سواد وبياض
([4]) الحويان 95/3 ومختار الشعر الجاهلي ص175

إنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق كثيرة؛ فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة.

وملاحظة ثانية هي أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة؛ بحيث تنشر الملل في نفوسنا؛ فقد أشاعوا فيها الحركة، وبذلك بثوا فيها كثيراً من الحيوية، وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار؛ فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ، ومن ثَمَّ كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً، وارجع إلى وصف طرفة لناقته فستجده يصفها وهي سائرة به في طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه، يقول:

أَمونٍ كأَلْواحِ الإِرانِ نَسأْتُها ... على لاحبٍ كأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ (1)

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط، يجد فيه جمالاً، كما يجد فيها روعة وبهاء؛ فيستمر في وصفها وكأنه تدلَّه بها حبًّا؛ فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده، وكأنه يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفر صوراً في أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم ويودون لو أتيح لهم من ينصبها لهم تمثالاً بديعاً، وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأتن وحمارها

(1) أمون: موثقة الخلق، والألوان: تابوت لموتاهم، ونسأتها: زجرتها، اللاحب: الطريق البين الواضح الذي أثر فيه المشي لبرجد: كساء مخطط شبه به طرائق الطريق وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار.

ويصورونها لنا وهي تجري في الصحراء تطلب الماء، والصائد إما في طريقها بكلابه أو على الملمستتر ً ا منها، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولاً .

وطبيعي أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة، فالحركة أساسه، وقد يُدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها؛ فالشاعر لا يكتفي بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار؛ بكثير ً ا ما يصور ظعن حبيبته وصواحبها في القافلة، وقد خرجت تطلب مرعى جديد ً ا، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضعينُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة الدائبةتسجيلاً بديع ً ا.

هذه الحركة في حياتهم التي تعني عدم الثبات والاستقرار، وبالتالي تعني عدم التوقف عند شيءوا إطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها؛ فالشاعر لا يقفطويلاً عند المعنى الذي يلم به؛ بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر؛ فحياته لا تثبت ولا تستقر، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر؛ بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة.

من ثم غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون. ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها. وتتألف القصيدة من طائفة الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفي فيها كل بيتغالب ً ا بنفسه؛ غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلالار ً ا.

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر؛ بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها، أما بعد ذلك فهي مفككة؛ لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه. ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته، وهو التنقل السريع.

وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم؛ فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكري. إنما هي موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض في انطلاق غريب كانطلاق حياة الشاعر في هذا الفضاء الصحراوي الواسع الذي لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحد، والذي تتراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة.

على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب؛ بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم

على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدها المفضل الضبي والتي يستهلها بقوله: ([1])

ألا أُمَّ مَرْوٍ أَجمعتْ فاستقلَّتِ ... وودَّعتْ جيرانَها بالذلَّتِ

فإنه يقص علينا بعد غزلها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك، وهو لا يسردها في إجمال؛ بل يسرد تفاصيلها، إذ يذكر أنهم أعدو العدة للغزو والسلب، يحملون قسيَّهم الحمر، وقد خرجوا من واديين مِشْعلوالجَبا راجلين، وقد حمل زادهم تأبطشرًّا الصعلوك المشهور، وكان يقتر عليهم في الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكواجوعًا. ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التي كانت معهم، وكيف أنهم كانوا يحملونحسامًا صارمًا؛ بلسيوفًا قاطعة كأنها قطع الماء في الغديرلمعانًا؛ بل كأنها أذناب البقر الصغير تحركه، وقد نهلت وعلت من دماء محرم ساق هديه إلى الكعبة؛ فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا ساق هديه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، وعلت من دماء محرم ساق هديه إلى الكعبة، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه، ومن يُقْتَل أخذوه أسيرًا وينهى القصةمتخرًا بشجاعته وأنه لا يرهب الموت.

([1]) المفضليات: ص 108، وأجمعت: عزمت أمرها، واستقلت: ارتحلت

ويكثر الصعاليك مقَص ٍ مثل هذه المغامرة، ويلقانا في حماسياتهم كثير من وصف معاركهم، وقد يحاولون سردها، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات؛ إذ يتحدث فيها حديثا مفصلاً عن يومي النِّسا والجفار، فالقصص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له في مطو ّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي. ونراها ثلاً في غزلهم على نحو ما مر بنا في غزلية المنخل اليشكري، وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل في غزل المرقّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهي روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي؛ فقد ظل شعرهم غنائيًّا ذاتيًّا، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير مطولُذ ْع َ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيبً ا دقيقً ا، فإن شيئً ا من ذلك لم يخطر بباله؛ إذ كان مشغولاً بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

المبحث الأول

الغزل في شعر امرئ القيس

اسمه:

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمر أكل المرار بن مطوية بن يكرب بن ثور بن مرتع بن معاوية بن كندة. اختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته فقيل هي سنة 497م وقيل هي سنة 520م ونق عن رنيان إنه ولد سنة حوالي 500م ، أبوه حجر ملك غطفان وأسد ، وأمه فاطمة بنت ربيعة وأخت المهلهل وقيل اسمها فاطمة ، ولقبها تملك . ولإمرئ القيس نسب آخر صنعه الشعر لا الدم فقد نشأ في بيت موصول بالشعر ، فعمه معد يكرب شاعر ، وجده لأبيه حجر أكل المرار شاعر ، وخاله مهلهل وكليب أبناء ربيعة شاعران وخالته ربية الزهراء شاعرة ، فهو معهم ، مخول ، إرثه من الشعر يربى على إرثه من الملك ، وربما كان الموروث أثر في حياته أكثر من أثر الملك جعله كما سنرى ، ينبه في الشعر ، ويحمل في السياسة ، ويخفق في طلب الملك.([1])

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعية أبيه من بني أسد، وسلك مسلك المترفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ويعاقر الخمر ويغزل الحسان ، ومغته أبوه ولما لم ينفع معه القول طرده عنه وأقصاه حتى جاء نبأ ثورات بين أسد على أبيه وقتلهم له ، لأنه كان يقسو في حكمه عليهم ، فقال: (ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمر ٌ وغداً أمراً) وأخذ يجمع العدة ويستنجد القبائل في إدراك

([1]) الأدب الجاهلي ، غازي طليمات ، عرفان الأشقر

ثأره منازل بني أسد وقتل فيهم كثيراً ثم اشتدت به علة قروح فمات منها ودفن وكان ذلك قبل الهجرة.([1])

وكانت الملوك تأنف من ذلك فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ القبائل " من طي وكلب وبكر بن وائل "فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم يخرج إلى الصيد ، فتصيد ثم عاد ، وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفذ ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى غيره.

ألقى الثراء الموروث عن كاهل امرئ القيس تبعات الحياة ودفعه شبابه الريان إلى إشباع الغريزة ، فكان للمر أة مكان الصدارة من حياته وشعره.

والنساء اللواتي يتخطرون في دايوانه كثيرات ذوات صفات مختلفة، أحصى بعضها الأستاذ صالح سمك فقال : (فاطمة متدللة مغرورة ، وليلى ناسية متجاهلة ناكرة ، وعنيزة مستجيبة ، وأسماء قُلّب ،وسلمى غرة ناقرة ، وماوية خبيثة ماكرة ، وهرلعوب راغبة ، ورقاش متعرضة باذلة).

وفي شعره أسماء كثيرات لم تسلك في الإحصاء السابق مثل هند والرباب وفرتنى ، ولميس إلى جانب نسوة (لا يذكر أسماءهن ، فيهن الساخطة المتأبية ، والعاقلة

([1]) موسوعة أمراء الشعراء ، عباس صادق

المستأنية والوجلة المتكبرة ، والقاهرة حبها على رجل واحد وفيهن من هي رقيقة الحديث هماسة الحواء.. وهناك الحامل والمرضع والشابة الفتية والحرة والجارية وبائعة الهوى).

وتحدث صالح سمك عن الصور المثلى لجمال المرأة عند امرئ القيس وأعجب بما يتصوره ويصوره فقال يصف ذوقه : (هو ذوق ترتضيه الفطرة السليمة .. وصواحبه هيفاوات مديرات ، فرعاوات رشقيات ، وبذنيات ناعمات مترفات وهن مشرقات الوجوه ، حورٌ عين ، فواتر الأجفان ، ساحرات النظرات لمياوات الشفاه ، فاتنات الثغور ، بيضاوات الأسنان ، أسيلات الخدود ، جيداوت الأعناق ، سوداوات الشعر ، صقيلات النحور ، كاعبات النهود).([1])

وبين الدارسين المحدثين من نظر إلىفراط امرئ القيس في وصف النساء وا لى كثرة معشوقاته بعين المحلل النفيسي ، فرأى أن امر القيس لم يكن عاشقاً معشوقاً محباً إلى النساء ، بل كان بغيضاً إليهن (لا يكاد امراة تصبر معه) . وعلل شيوع الوصف الجسدي الصريح ، كثرة النسساء في شعره بأنه الشاعر (لم يكن قد تعامل مع الحرائر ، فلم يعرفهن معرفة أكيد لأن تعامله مع المرأة البغي هو التعامل الشائع في شعره بسبب حياته المتنقلة).

([1]) الأدب الجاهلي : قضاياه ، أغراضه ، أعلاه ، فنونه ، د. غازي طليمات ، عرفان الأشقر

وذهب إلى أن إسرافه في تصوير شهوات الجسد تعبير غير مباشر عن ضعف الرجولة ! فقال : (إن المبالغة في مسألة المرأة ما هي إلا تعويض عن هذا النقص الكبير الذي يحس به الشاعر ، وهو يكذب ليغطي هذا النقص أمام الآخرين).

سواءٌ صدق الشاعر أم كذب فإن هذه الآراء لا تعدو أفق التخمين المستند إلى مدرسة التحليل النفسي وهي مرتبطة بنمط واحد من ثلاثة أنماط يفضنا عليها استعراض غزله وهي الغزل الذي يخالط الوقوف على الأطلال ، والغزل الوصفي الفني ، والغزل الماجن الصريح.

أما النمط الأول فإنه يَرِدُ على صورة ذكرى كانت هاجعة في ماضي الشاعر ، ثم أيقظها الوقوف على الأطلال ، فإذا هي تجوس حلل الرسوم حية متحركة ، والشاعر في تصوره وتصويره في النفس نقي الحس ، عفّ العبارة.

مرّ امرؤ القيس بجبال وهضاب متجاورة تفضي إلى رسوم دار كانت تسكنها هند وصويحباتها فإذا القافلة التي رأها قبل سنين تشق سجف الزمان ، وإذا هوادج لميس وفرتني والرباب تتخطر أمامه كالنخيل الذي حان قطافه ، فأرسل عينيه في وجوههن الزهراء ، وبشرتهن المضمخة بالعطر ، وأحداقهن السوداء وقال:

دَارٌ لِهِنْدٍ وَالرَّبَابِ فَرَتْنَى ولميس قبل حوادث الأيام

أو ما ترى أضغانهن بواكراً كالنّخلِ شَمَّ كانَ حينَ رَامِ

حتوا لـ لـ ـالـ ـعـ بيرجـ لودـ ها بيض الو نجواعـ مـ الأجسامِ

ورأى الأستاذ صالح سمك أن هذا النمط من الغزل أرقى ما في شعر امرئ القيس من نسيب وتشبيب لأنه (في مقدماته الطللية لا يلاحق المرأة كياناً مادياً، حسياً يصف دقائقه فحسب ، وا ٍنما يعرض لها معنى إنسانياً لفرقاها ، يحزن لريحلها) فيقول:

فظـلـ لتـ فيهـ نالدـ يارـ كـ أنّني ذـ شولياكـ رـ قـ بوحـ دامِ

أما النمط الثاني من غزله فهو الغزل الحسي النفسي وفيه يصور امرؤ القيس محبوبته فاطمة شابة خفيفة اللحم ، ضامرة البطن ، بيضاء البشرة ، كأن الله وضع بين نحرها وصدرها مرآءة صافية ، تبهر النظر ، فإذا التفتت إليك سحرك خدها الصقيل الوفيء ومقلتاها الحوراوان الشبيهتان بمقلتي مهاة تراقب صغيرها ، وتغمر بنظراتها الحانية الرؤوم عنقها الذي أخذ من الظبي تميزه وطوله في غير إسراف ، بل أربى عليه باللؤلؤ الذي يزينه ، وهي ذات شعر طويل غزير شديد السودان ينساح على ظهرها كلّه ، كأنه قفط نخلة يانعة الثمر

مهفهفةـ غـ يرـ فـ اضـ ةٍ ترائـ بـ هـ ا مصقولكـ السَّجنجـ لِ

تـ صـ دُّتوبـ دـ يـ نأسـ يلٍ وتتّقي بـ ناظـ رقـ نـ حوشـ جـ رةٍ طـ فـ لِ [1]

مهفهفة : قليلة اللحم ، غير مفاضة : المفاضة : الضخمة البطن.

([1]) الأسيل: الخد السهل ، ناظرة : عين ، مطفل: ذاتطفل ، جيد : عنق ، ليس بفاحش ، ليس كريه المنر فاحضر الطول ، نصته : مدته وأبررته ، معطل: لا حبيغدائره مستشزرات ، ذوائب الشعر مفتولات إلى فراق.

الترائب : جمع تريبة موضع القلادة من الصدر.

السجنجل : المرأة الرومية.

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ جَرَّدَتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

وَفَرْعٍ يَغْشَى الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ

ومعشوقته هذه ذات خصر أهيف لين ، ينطوي تحت صدرها طياً ، كما يتثنى زمام الفرس في يد الفارس ، وذات ساق غضة تسيل نضارة ، كأنها قصبة البردي التي رواها الماء ، وهي شديدة البياض ، إذا أسفرت في جوف الليل أضاءت ما حولها كما ينشر مصباح الناسك المتعبّد حوله هالة قدسية النور ، وهي منعمة مترفة ، تنام حتى ترتفع شمس الضحي ، وما الذي يدفعها إلى البكور ، أو إلى شد نطاق الخدمة على ثوبها الرقيق إذا كانت وصيفاتها يقمن بخدمتا ، وينثرن على سريرها ذرير الطيب.

فقال :

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ

تُضِيءُ الظَّلَامَ الْعَذْرَ كَأَنَّهَا مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ .

وَتُضْحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا * نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْطِقِ عَنْ تَفَضُّلِ

الكشح : الخصر - الجديل : زمام يتخذ من سيور وهو لين – الأنبوب: البردي – السقي النخل المستقي – المذلل : الذي جمعت أعذاقه لتجنى – المنارة: المسرجة – متبتل: المجتهد في العبادة – نؤوم الضحى : لها من يخدمها = لم تنطق : أي لم تشد نطاقاً – التفضل : ليس ثواب واحد.

وثالث أنماط الغزل في شعر امرئ القيس تلك المواقف التي يصف فيها الشاعر المعايشة والوصال ، والتي كان أكثر الشعراء الجاهليين يتحرجون – على جاهليلتهم- من تصويرها ، كما تتحرج اليوم من تفسيرها وشرحها ، لما فيها من إغواء ، وخورج على المألوف من عفة العرب. قال أحمد بن فارس اللغوي :و(ما خص ّ الله جل ثناؤه به العرب طهارتهم ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرها).

وربما كان استرسال امرئ القيس في تصوير هذه المواقف نابعاً من معاشرة البغايا اللواتي كن ّ يتهافتن عليه طامعات في ماله قبل وصاله ، أو من الترف الذين غمر اه حتى أبطرا ، فخيل إليه أن له الحق في البوح بما لا يبوح به غيره من الأغمار و الأغفال فاشتط واستطال ، وقال ما لا يقال في فسوق المترفين چ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ گ گ چالعلق: ٦ – ٧

و َرُبَّ أَيٍّ وَّ لهٍقَدَ ْ تُ لَيْ لَةٍ بِآنِسَةٍ كَأَنَّ هَ خَاتَطِ ْ ثَالِ

يُضِيءُ الْفِرَاشُ َ جهَ لَهِضَ جِيعِ هَا كَمِ صبَاحِ َيتٍ فِقَنَادِيلِ َ ّالِ

إذا للضجيعُ ابتزها من ثيابها تَمِيلُ عَلَيهِ وُنَّةً غَيرَ مِجْبالِ

سَمَوتُ إِلَيها بَعدَ نامَ أَهلُها سُموَّ بابِ الماءِ حالاً عَلى حالِ

فَقالَت لَكَ اللَهُ إِنَّكَ فاضِحي أَلَستَ تَرى السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي

فَأَصبَحتُ مِنها عَوشَوقاً أَصبَحَ بَعلُها عَلَيها القَتامُ يَغُثُّ الظَهرَ البالِ

الأنسة: المرأة يؤنس إلى حديثها وقربها وحسنها – خط تمثال : نقش صورة – ذبال: صانعو الفتيل – ابتزها: خلع عنها ثوبها – هونه : سهلة لطيفة – مجبال: عظيمة الخلق – سموت إليها : نهضت إليها شيئاً بعد شيء لئلا يشعر بمكاني – حال بعد حال : شيئاً بعد شيء – سباك : باعدك وفضحك – القتام : الغبار .

كذلك يقول في معلقته التي تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها حبه إلى امرئ القيس فيقول:

قفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحَوْملِ .

قد عدَّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته إذ وقف واستوقف وأبكى وبكى من معه من ذكر الحبيب والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفسوا عنه ، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وا ٍرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعاً يقصُّ علينا مغامراته في النساء وكأنه يرد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن الغيرة في قلبها ، فهو

يذكرها بعض صواحبه اللائي أبكينه ويروح به حبهن مثل أم الحويرن وأم الرباب ، ثم يفيض في يوم العهد يتعهد ويشير فيقول لعنيزة بيته المشهور:([1])

فَمِثْلِكِ بُحْلَقَدْ وَقَتْ رَضْفَأَلْهَيَتْهُعَانَنْتَيمَلُئِحَوِلِ

ثم يعود فيبث فاطمة حبه مصورا دلالها، ومعاتبا لها عتابا رقيقا، في تلك الأبيات البديعة:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

وا ِن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

وا ِن كنت قد ساءتك مني خليقة

فسلي ثيابي من ثيابك تنسل

أغرك مني أن حبك قاتلي

وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي

بسهميك في أعشار قلب مقتل

وكان امرؤ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعد وا ِن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه الغزل الذي بودعه.

([1]) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف

وقوله متغزلاً :

سَمَوتُ إِلَيها بَعدَ ما نامَ أَهلُها سُموَّ حَبابِ الماءِ حالاً عَلى حالِ

فَقالَت لَكَ اللَهُ إِنَّكَ فاضِحي أَلَستَ تَرى السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي

لقد ضمن امرئ القيس شعره من العاطفة الإنسانية ونجوى الوجدان ما يهز كل إنسان في مصر وكل عصر وكان قوله:

قفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحومَلِ .([1])

أعظم صيحة للحب والغزل في وجه الغناء ، وكان لهذه الصيحة صدى عميق في كل قلب خافق يتعلل بالذكرى والأماني ، ثم أن امرئ القيس بث هذه العاطفة الإنسانية الخالدة في وصفه للطبيعة فربط بينها وبين اختلاجات النفس البشرية ، وا ٍذا شعره كله نابض بتلك الاختلاجات ، وا ٍذا هو مؤثر عميق التأثير قد خلدت بخلوده تلك الأوصاف النابية التي شانت جماله الرفيع:

فيقول:

قفا نبك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحومَلِ

فتوضح فالمقراة لم يَعفُ رسمها لما نسجتْها من جَنوبٍ وشَمأَلِ

([1]) تاريخ الأدب العربي ، مصطفى صادق الرافعي

ياصحبي فقا وأعيناني على البكاء عند تذكري حبيباً فارقته ومنزلاً خرجت منه وذلك الحبيب وذلك المنزل يقعان بين هذين الموضعين هما الدخول وحومل.([1])

أما امرؤ القيس فلا يلتفت للركب أو للمظهر الخارجي لموقف الرحيل وا ٍنما يصور لنا لوعته وأساه وبكاءه المر، والرفاق حوله يخشون عليه أن يهلك أسى وحزناً ، يقول امرؤ القيس.

كأنيغ َداةالبَ َيْنِ ْتمَ َحَ مَ لّوا سلدَى ُرابلحِ َي ّناقِف ُحنظلِ

و ُقوفاً بها َحْ بيِ َلطِيَّهُ مْ يقُولون لاتهلكْ أسىً وتجمّل

ومجمل ما سبق أن الشعراء الجاهليين أفردوا مقدمات أكثر مطولاتهم أو قصائدهم لأحاديث الغزل وما يتصل به وأن المقدمة الطللية هي أكثر مقدمات الغزل انتشاراً وهي مقدمة يقف الشاعر فيها بأطلال محبوبته ناعتاً المكان وما آل إليه بعد أن كان عامراً بأهله وقد يبكي في هذا المكان على حبه الضائع أو يتذكر موقف الرحيل حيث يصف الظعن أو ما يلاقيه من جوى وحرمان بعد رحيل الحبيبة.([2])

([1]) محمد الإسكندراني – نعمان رزوق ديوان امرئ القيس :
([2]) الدكتور عبد العزيز نبوي دراسات في الأدب الجاهلي ،

المبحث الثاني

نموذج من شعر الغزل في شعر عنترة بن شداد

هو عنترة بن شداد وقيل عنترة بن عمرو بن شداد ، وقيل عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد.

وقال البغدادي: ابن قرادة بن مخزوم بن ربيعة.

وقيل مخزوم بن عوف – بن عبس- بن عيلان بن مضر.

وهو أحد شعراء العرب وفرسانهم وأبطالهم المشهورين ، ومن أصحاب المعلقات ، حضر حرب داحس والغبراء وحسن فيها بلاؤه ، وعاش طويلاً ، حتى كبر ومات سنة 615م تقريباً

وقد عشق "عبلة " ابنة عمه وان ذلك قبل أن يحرر ويعترف أبوه ببنوته ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، فحفزه ذلك وهاج من شاعريته.

وعده صاحب الجمهرة ثاني أصحاب الجمهرات.

وذكره أبوعبيدة في الطبعة الثالثة من الشعراء ، وهو أحد أغربة الجاهلية وقال صاحب الأغاني:

هم عنترة وأمه ذبيبة ، وخفاف وأمه ندبة والسليك وأمه سليكة، وا إليهن ينسبون ، وأغربة العرب سوادهم.

وكان أبوه نفاه واستبعده على عادة العرب مع أبناء الإما فإنها استبعدونهم إلا إذا ظهرت عليهم الشجاعة والنجابة.

اعتراف أبيه به:

وسبب اعتراف أبيه به : أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلا لهم ، فلحقوا بهم فقاتلوهم وعمهم معهم ، وعنترةيومئذٍ فيهم ، كرّ يا عنترة. فقال عنترة: العبد لا يحسنالكرّ ، إنما يحسنالحلابوَالصرّ . فقالكرّ وأنتحر فّكرّ عنترة وهو يقول:

أنالهجينعُنترَه-كلُّ امرئ يحمِيَهْ

أسوأَلحمرَهْ الوارداتشفرَه

فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه ، وقيل أن السبب في استحقاقه إياه أن عبساً أغاروا على طئ ، وأصابوا نعماً ، فلما أرادوا القسمة، قال لعنترة لا نقسم لك نصيباً مثل أنصبتا ، لأنك عبد ، فلما طال الخطب بينهم كرت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة ، وقال دونكم القوم فإنكم عمدهم ، استنفذت طيئ الأبل فقال له أبوه كر يا عنتر ، فقال أو يحسن العبد الكر ؟ ، فقال له أبوه العبد غيرك ، فاعترف به ، فكر واستفذ الابل من طئ وجعل يرتجز بالرجز المتقدم.

شجاعته:

وكان (عمرو بن معد يكرب) معاصرا لعنترة، وقد روي عنه أنه قال: "لو سرت بظعينه وحدي على مياه (معد) كلها ما خفت أن أغلب عليها، ما لم يلقني حراها أو عبداها. فأما الحران (فعامر بن الطفيل) و (عتيبة بن الحارث بن شهاب) ، وأما العبدان فأسود بني عبس (يعني عنترة) و (السليك بن السلكة) ، وكلهم قد لقيت، فأما (عامر بن الطفيل) فسريع الطعن على الصوت، وأما (عتيبة) فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت، وأما (عنترة) فقليل الكبوة شديد الجلب، وأما (السليك) فبعيد الغارة كالليث الضاري.

وقيل لعنترة أنت أشعر العرب وأشدها ، قال ، لا ، قيل له فيم شاع لك هذا في الناس؟ قال :كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً إلا أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان ، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأنثني عليه فأقتله.

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: للحطيئة: كيف كنتم في حربكم؟ قال: كنا ألف فارس حازم ، وقال كيف يكون ذلك ؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأي ، فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد ، فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك، فقال عمر صدقت.

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ما وصف لي إعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة.

وفاته:

اختلف في سبب موته قيل إنه أغار (عنترة) على (بني نبهان) من طيء، فأطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير، فجعل يرتجز وهو يطردها. وكان (وزر ابن جابر النبهاني) في فتوته فرماه وقال خذها وأنا ابن سلمى، فقطع معطاه. فتحامل بالرمية حتى أتى أهله، فقال وهو مجروح:

وا إبن سلمى عنده فاعلموا دمي

وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمي

إذا ما تمشى بين أجيال طيء

مكان الثريا، ليس بالمتهضم

رماني ولم يدهش بأزرق ذمٍ

عشيّة حلّوا بين قومٍ مخرَم

وقيل أنه في غزوته إلى طئ هذه ، كان مع قومه ، فانهزموا عنه فخر عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دغلاً وأبصره ربيئة طئ ، فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه فقتله.

وقيل أنه كان قد أسن وافتقد وعجز عن الغارات وكان له على رجل من (غطفان) دين. فخرج يتقاضاه إياه. فهاجت عليه ريح شديدة، في يوم كثف وهو بين شر (ح) و ناظرة وقتلته.([1])

الغزل في شعر عنترة:

هلْ غادر الشُّعراء مِنْ متردَّم أمْ هلْ عرفت الدار بعد توهمِ

يا دار عَبلةَ بالجواءِ تكلَّمي وعَمي صباحاً دار عَبلةَ واسلَمي

دار لا نسيه غضيض طرفها طوع العناق لذيذة المبتسم

فوقفتُ فيها ناقتي كأنَّها فدَنٍ لأقضيَ حاجةَ المتلوِّمِ

وتحلُّ عبلةُ بالجواءِ وأهلُنا بالحزنِ والصمّانِ فالمتثلَّمِ

حيِّيتَ من طللٍ تقادمَ عهدُهُ وأقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ

حلَّتْ بأرضِ الزائرينَ فأصبحَتْ عسِراً عليَّ طلابُكِ ابنةَ مخرمِ

عُلِّقتُها عرضاً وأقتُلُ قومَها زعماً لعمرُ أبيكَ ليسَ بمزعمِ

ولقد خلوتُ بها وجرَّ ذيولَها ووجدتُ طيبَ وصالِها لم يكلمِ

كيفَ المزارُ وقد تربَّعَ أهلُها عنزٍ ويبعدُ أهلُها بالأغلمِ

شرح الأبيات:

هلْ غادر الشُّعراء مِنْ متردَّم أمْ هلْ عرفت الدار بعد توهمِ

([1]) الأدب الجاهلي وتاريخه ، تاريخ ، نصوص ، دراسات " ، تأليف د. سليمان محمد سليمان ، ط1 ، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية

هل تركت الشعراء موضعا مسترقعا إلا وقد رقعوه وأصلحوه؟ وهذا استفهام يتضمن معنى الإنكار أي لم يترك الشعراء شيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه، وتحرير المعنى: لم يترك الأول للآخر شيئا أي سبقني من الشعراء قوم لم يتركوا لي مسترقعا أرقعه ومستصلحا أصلحه،وا ٍن حملته على الوجه الثاني كان المعنى: إنهم لم يتركوا شيئا إلا رجوع نغماتهم بإنشاء الشعروا ٍنشاده في وصفه ورصفه ثم أضرب عن هذا الكلام وأخذ في فن آخر فقال مخاطبا نفسه: هل عرفت دار عشيقتك بعد شكك فيها، و(أم) هاهنا معناه بل أعرفت.

يا دارَ عَبلَةَ بالجَواءِ تَكَلَّمي وَ عَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ اسلَمي

يا دار حبيبتي بهذا الموضع تكلمي وأخبريني عن أهلك ما فعلوا ثم أضرب عن استخباره إلى تحيتها فقال: طاب عيشك في صباحك وسلمت يا دار حبيبتي.

فَوَقَفتُ فيها ناقَتي كَأَنَّها فَلأَِقضِيَ حاجَةَ المُتَلَوِّمِ

يقول: حبست ناقتي في دار حبيبتي، ثم شبه الناقة بقصر في عظمها وضخم جرمها، ثم قال:ا ٍنما حبستها ووقفتها فيها لأقضي حاجة المتمكث بجزعي من فراقها وبكائي على أيام وصالها .([1])

وَتَحُلُّ عَبلَةُ بالجَواءِ وَأَهلُنا بِالحَزنِ فَالصَمّانِ فَالمُتَثَلَّمِ

يقول: وهي نازلة بهذا الموضع وأهلنا نازلون بهذه المواضع .

([1]) شرح المعلقات السبع ، تأليف أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، دار الهرم

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَأَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ يَثَمِ

يقول: حييت من جملة الأطلال. أن خصصت بالتحية من بينها ثم أخبر أنه قدم عهده بأهله وقد خلا عن السكان بعد ارتحال حبيبته عنه .

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَيَّ طِلَابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

يقول: نزلت الحبيبة بأرض أعدائي فعسر علي طلبها، وأضرب عن الخبر في الظاهر إلى الخطاب وهو شائع في الكلام قال الله تعالى (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح)

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ أَيَسِيمُ زَعْمِ

يقول: عشقتها وشغفت بها مفاجأة من غير قصد مني، أي نظرت إليها نظرة أكسبتني شغفا بها وكلفا مع قتل قومهما, أي مع ما بيننا من القتال. ثم قال: أطمع في حبك لا موضع له لأنه لا يمكنني الظفر بوصالك مع ما بين الحيين من القتال والمعاداة، والتقدير: أزعم زعما ليس بمزعم أقسم بحياة أبيك أنه كذلك .

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ

يقول: وقد نزلت من قلبي منزلة من يحب ويكرم فتيقني هذا واعلميه قطعا ولا تظني غيره .

كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلَمِ

يقول: كيف يمكنني أن أزورها وقد أقام أهلها زمن الربيع بهذين الموضعين وأهلنا بهذا الموضع وبينهما مسافة بعيدة ومشقة مديدة؟ أي كيف يتأتى لي زيارتها وبين حلتي وحلتها مسافة؟ المزار في البيت: مصدر كالزيارة. التربع: الإقامة. زمن الربيع.

من حمل كل ما في ديوان عنترة على محمل الشعر الصحيح وجد فيه كثيراً من الغزل ، ومن ضربه على محك النقد ليوثقه قبل أن لم يتحصل له من الديوان كله غير مقدمات من أبيات ، أو مقطعات من نسيب فاتر الحس لا يجد فيها شوق المفارق ، ولوعة المهجور ، وتعلق المتيم ، ولا يجد صورة محبوبه واحدة محددة القسمات ، بل يجد بضع نسوة مختلفات الأسماء متباينات الملامح.

أول ما يطالعنا في غزل عنترة مقطعات يسبقها فراق ، ويصحبها تذكر وعتاب وملامة.

ومن هذه المقطعات أبيات يصف فيها الشاعر سرباً من ظبياء مر على يمينه وعن يساره ، فذكره صاحبته سوء اء ، فأحسن حينئذ أن زندين يقتدحان نار شوق بين حنينه فعجز عن كتمان الشوق وباح بحبه الحبيس ، ولام صاحبته ، لأنها تقسو ويلين وتحقد ويصفح ، وتتقد وينصح ، وتقابل نصحه بالإعراض :

طربت وهاجتك الظباء السوارح غداة غدت منها سنيح وبارح

تغالت بك الأشواق حتى كأنما بزندين في جوفي من الوجد قادح

وقد كنت تخفي حب سمراء حقبة فبح لان منها بالذي أنت بائح

لعمري لقد أعذرت لو تعذرينني وخشنت صدرا حبيبه لك ناصح

وفي مقدماته الغزلية القصيرة شكوى من تغير المحبوبة وا ٍحساس بالحرمان والألم.

فقد أحب عنترة " رقاش " فأعرضت عنه ، ووصلها فقطعته ، فمضى يؤتب نفسه المتعلقة بامرأة نائية ، تسكن وادياً يألفه الحمام بين قمتي جبل شمام:

نأتك رقاش إلا عن لمام وأمسى حبلها خلق الرمام

وما ذكري رقاش إذا استقرت لدى الطرفاء عند أبي شمام

ومسكن أهلها من بطن جزع تبيض به مصاييف الحمام

وربما كان نسيب عنترة برقاش ضرباً من التواجد لا الوجد ، ولذلك خلا من تصوير المحاسن وتحليل المشاعر.

أما أبياته في عبلة فنمط آخر من الغزل ، فيه التعلق بفم قبلة ، وذاق حلاوة رضابة ، وانتسم طيب نكهته ، فوجده كنافجة المسك ، أو كروضة معطرة ، تنشد أرجها المطو كلما افتر ثغرها عن أسنانها المتألقة:

إذ تستبيك بذي غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم

وكأنما نظرت بعيني شادن رشأ من الغزلان ليس بتوأم

وكأن فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من الفم

أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

ونحن نزعم أن عنترة لم يكن زير نساء كامرئ القيس ، ولا خدين عواهر كالأعشى.

وا إنما كان بطلاً قبل أن يعشق ، وأنه أحب عبلة لا سواها بنخوة الفارس لا بشهوة العاشق حباً يرقى برجولته ، ويرضيه عن نفسه أول الأمر ، ويرضى عنه عبلة آخره.

فهو لذلك يؤثرها على نساء الأرض ، ويهب لحمايتها إذا استصرحته ، ولا يراودها عن لذة ترى فيها مساساً بعفتها.

ولئن سْأَلْتَ بذاكَ عبلةَ بَرَتْ أن لأريدُ منالنساءِ سواها

وأُجيبُها إذَا اعتلْعَظيمةٍ وأغيثهاوأكفُّ عمَّا سماها

ونزعم كذلك أنه جوهر عشقه الألم والحرمان لأسباب كثيرة أولها الفراق بينه وبين عبلة ، فهو عبد أسود مضطهد ،وهي حرة بيضاء منعمة.

وثانيها : الحسد ، فهيو يحسد لذاته على أنسابهم وحريتهم ولذاته يحسدونه على حب عبلة.

وثالثهما: ابتعاد محبوبته عنه ، وبقاء صورتها معه في السلم والحرب حتى أنه ليرى فمها في الروضة المعطار ، كما يراه على صفحة السيف المصقول .

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

والرابع : اليأس من وصالها والاقتران بها ، وهذا اليأس حول هم الشباب إلى غم مقيم في الكهولة من ظفر بعبلة رجل غيره.([1])

وأيضاً كانت له امرأة من بجيلة لا تزال تذكر خيله وتلومه في فرس كان يؤثره على خيله ويطعمه ألبان إبله فقال:

لا تذكري مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

إن الغبوق له وأنت مسوءة فأوهي ما شئت ثم تحوبي

كذب العتيق وماء شن بارد إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي

المبحث الثالث

نموذج من شعر الغزل لطرفة بن العبد

الغزل في شعر طرفة بن العبد:

من العسير أن نحدد ولادة طرفة ووفاته بالأعوام والأرقام ، وحسبنا من التحديد الإكتفاء بالتقريب كأن نقول: انتهت حياة طرفة التي لم تزد على ربع قرن إلا قليلاً قبل الهجرة ببضعة وستين عاماً ، في زمن عاش فيه عدد من الشعراء المشهورين كعمرو بن قميئة ، وعبيد بن الأبرص ، والمتلمس ، ووصلته بكثير منهم أواصر القربى والمعايشة.

([1]) الأدب الجاهلي ، قضاياه ، أغراضه ، أعلامه ، فنونه ، ـاليف : غازي طليمات ، عرفان الأشقر ، ص810

فالمتلمس خاله ، والمرقش الأصغر عمه ، والمرقش الأكبر عمّ عمّه المرقش الأصغر ، وعمر بن قميئة ابن عمّ أبيه ، والخرنق الشاعرة أخته.

وهذا يعني أنه نشأ في بيت موصول النسب بالشعر ، أما نسبه المفصل المطول فقد رواه املفضل الضبي ، فذكر في أوّله أنه طرفة بن العبد بن سفيان ، وذكر في آخره أنه ينتهي إلى بكر بن وائل ثم إلى نزار ثم إلى عدنان فهو إذن أحد الأشراف المعدودين في الجاهلية ، طرفة لقب غلب اسم الشاعر وكاد يطمسه " وقيل: اسمه عمرو ، وقيل أيضاً : بل اسمه عبيد ، وقالوا: إن سبب تلقيبه بطرفة هو قوله : ([1])

تَلَوْ جَلا بالبكاء اليومُطَّرِفا ** ولا أمير كما بالدار إذ وقفا

أما شاعريته فقد نشأة طرفة في بيئة شاعرة فخاله المتلمس شاعر مجيد وهو من أشعر المقلين في الجاهلية ، وعم أبيه المرقش الأكبر عمرو بن سعد بن مالك وعمه هو المرقش الاصغر ربيعة بن قيس بن سعد ، وعمه الآخر عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك كانوا شعراء مجيدين ، وكانت أخت طرفة الالخرنق شاعرةكذلك ، فهو إذن قد وجد في بيئة شاعرة ، وقد ورث الشعر من قبل أبيه وأمه ، فلاربد ع في بلوغه هذه المرتبة ، بين فحول الجاهلية كما نرى في معلقته والتي اعتبرها كثيير من النقاد مثل أبي عبيدة

([1]) الأدب الجاهلي ، غازي ، عرفان الأشقر

أجود المعلقات وهي حقيقةظهر طرفة شاعراً مجيداً مبشراً بعبقرية مبدعة وشاعرية فذة لو أن الحياة امتدت به فقوله :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب بجمانة البين عرر .

ومعلقته شأن سائر المعلقات متعددة الأغراض والموضوعات وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية : المقدمة الطللية والغزل ووصف وقوله في قصيدة الغزلية:

لخولة أطلال ببرقة تهمد

تلوح كباقي الوشم في الظاهر اليد

خولة: اسم امرأة كلبية، الطلل: ما شخص من رسوم الدار، تلوح: تلمع، واللوح اللمعان، الوشم: غرز الجلد بالإبرة وذر الكحل أو النؤر عليه فيبقى سواده ظاهراً ، ويروي الشطر الثاني : ظللت بها أبكي وأبكي إلى الغد.

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد([1])

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين بن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

([1]) الأدب الجاهلي ، خليل أب ذياب

وقفا: منصوب على الحال جمع واقف ، تجلد :كن جلداً صابراً ، أي تصبر ، والبيت مأخوذ من امرئ القيس في معلقته مع تغيير كلمة القافية.

الحدج: مركب من مراكب النساء، والجمع حدوج وأحداج والحداجة مثله، وجمعها حدائج.

المالكية: منسوبة إلى بني مالك قبيلة من كلب. الخلايا: جمع الخلية وهي السفينة العظيمة، السفين: جمع سفينة ثم يجمع السفين على السفن، وقد يكون السفين واحدا، وتجمع السفينة على السفائن .

النواصف: جمع الناصفة، وهي أماكن تتسع من نواحي الأودية مثال السكك وغيرها، من دد: هو اسم واد في هذا البيت وقيل دد مثل يد، وددا مثل عصا، وددن مثل بدن، وهذه الثلاثة بمعنى اللهو واللعب. الحيزوم: الصدر، ، أحوى: الذي في شفتيه سمرة ، السمط : الخيط الذي تنظم اللائي ، يصف حبيبته في جمال شفتيها أو عينيها بالظبية التي تمدغها ليظل بين الرسغ الركبة وجمالها.

النتائج والتوصيات

أولاً : النتائج:

1-تميزت الأساليب واللغة الشعرية لشعراء الجاهلية بالسلامة والسهولة .

2-الشاعر الجاهلي ، في شعره كان رومانسياً متميز بالصدق.

3-الشاعر الجاهلي في شعره كان واقعياً يستمد مفرداته من البيئة.

ثانياً : التوصيات:

1-الاهتمام بالأدب الجاهلي.

2-تناول الجوانب الإبداعية الأخرى من الجاهلي كالنثر.

3-إماطة اللثام عن الأعمال والأغراض الشعرية الأخرى للشعراء الجاهليين.

الخاتمة

الحمدُ لله الذي أعانا على إكمال هذا البحث ونسأله أن يكون قد وفقنا فيما اخترنا في هذه الدراسة التي نتمنى من الله سبحانه وتعالى أن تكون جزء مهماً من الدراسات الأدبية.

فقد اخترنا دراسة وصفية لشعر الغزل في العصر الجاهلي ، فبينا معنى الغزل وعرّفنا بثلاثة من الشعراء الجاهليين كما توقفت الدراسة عنه بعض النماذج الغزلية في شعرهم.

ولذلك فشعرهم يصور الغزل تصويراً دقيقاً صادقاً ، وتوصلنا إلى التعرف بصورة أقرب إلى الواقع عن حياة الشعراء وصلتهم بعصرهم وأثر ذلك في شعرهم ومعرفة معانيهم الفطرية ومستمدة من بيئتهم التي عاشوا فيها.

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون موضوع بحثنا هذا موافقاً وأن يجد جهدنا المتواضع القبول والرضا من قبل القارئ وأن نكون قد أسهمنا بشيء قليل في البحوث الأدبية.

المصادر والمراجع

1- حسين بن أحمد بن محمد بن حسين الزَّوْزَني، أبو عبد الله (المتوفى: 486هـ) ، شرح المعلقات السبع ، الناشر: دار احياء التراث العربي الطبعة: الأولى 1423هـ - 2002 م.

2- خليل أبو ذياب ، الأدب الجاهلي ، الناشر: دار عمار للنشر والتوزيع ط1، ج1.

3- سليمان محمد سليمان ، حسين عبد الله القرشي الأدب الجاهلي وتاريخه " تاريخ ، نصوص ، دراسات" ، طذ ، دار الوفاء الدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، القاهرة ، مكتبة الدراسات الأردنية ، 1969م

4- شوقي ضيف ، العصر الجاهلي، الطبعة العشرون ، دار المعارف .

5- عباس صادق ، موسوعة أمراء الشعراء.

6- عبد العزيز نبوي ، دراسات في الأدب الجاهلي.

7- غازي طليمات ،عرفان الأشقر ، الأدب الجاهلي " قضاياه ، أغراضه ، أعلامه ، فنونه .

8- محمد الإسكندري ، نعمان زروق ، ديوان امرئ القيس ، دار النشر بيروت ، 2007م.

9- مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ الأدب العربي ، المكتبة العصرية، الجزء الثالث ، 2007م.